قصة قصيرة

فاتخذت من دونهم حِجاباً

إسراء يسري

غلاف : أمنية محمد

قصة قصيرة

فاتخذت من دونهم حِجاباً

إسراء يسري

قصة قصيرة

فاتّخذت من دونهم حِجابا

بقلم:

إسراء يسري

تدقيق:

حنين أحمد

تصميم غلاف وداخلي:

موني مُحَمَّد

تعبئة وتنسيق ورابط تحميل:

حنين أحمد

تاريخ النشر:

١٤ فبراير ٢٠٢٢

إهداء خاص ووحيد إلى سيدة النساء أمي والتي اقترحت

اسم القصة فأصابت الاقتراح

واتخذت من دونهم حجاب

ومن السجادة والسماء باب

وقالت ربي إني أعوذ بك كل عبد لوام يؤلمني بالعتاب

وإني أسألك نصيباً بمن يكون لك أوّاب

" أسية ..أسية يا ابنتي "

أتاها صوت والدتها تناديها من الأسفل ففتحت باب

الشقة تطل من أعلى السلم صادحة:

"نعم يا أمي لقد كنت بالمطبخ ولم أسمع "

" تعالي يا ابنتي جدتك تريدك "

" حسناً يا أمي سأرتدي إزار الصلاة وأنزل "

بعد ربع ساعة

طرقت باب الشقة بالدور السفلي والتي يسكن بها جدها

وجدتها والدي أبيها

" تعالي يا حبيبتي ادخلي "

ابتسمت أسية وهي تسمع صوت جدتها فتقدمت

للداخل حتى دخلت من غرفة جدتها

أبصرت جدتها تجلس على الفراش وبأريكة جانبية يجلس

كل من أمها وزوجة عمها الكبير

ألقت السلام عليهم ثم اتخذت لها على الفراش جانب

جدتها مكاناً وقالت مبتسمة:" نعم يا حبيبتي عله خير "

توجست من نظرة السعادة التي تنطق من وجه جدتها

حتى فطنت للسبب وصوت أمها السعيد تقول :

" لقد أتى لكِ عريس يا أسية وعمك يشكر به كثيراً "

انحسرت ابتسامتها وهي تفكر

عريس ومن جهة عمها؟

بالتأكيد شيء لا يبشر بالخير

لم تُرِد أن تظهر ذلك وهي تشبك أصابعها قائلة:

" يكتب الله الخير يا أمي لكن مَن هو وهل أعرفه ؟"

توجست من نظرات ثلاثتهم لبعضهم البعض لكنها

انتظرت حتى وجدت زوجة عمها تقول ببشاشة مقيتة

لقلبها:" بالطبع تعرفيه "

" مَن؟"

"إنه مصطفى بن المُعلم رجب "

قطبت أسية لثوانٍ وسرعان ما لمعت عينيها بالإدراك

قائلة:"دعوني أخمن هل تقصدون مصطفى الذي يعمل

بالورشة على أول الشارع ؟"

ساد صمت لعدة ثوانٍ دون رد حتى قطعته جدتها قائلة :

" نعم يا ابنتي هو "

شيء من الغصة أصاب حلقها لكن كما تعودت منذ

سنوات ألا تظهر شيئا يكسر عزة أنوثتها فقالت بهدوء

محاورة :" لكن ألا ترون أنه لا يليق بي؟!

بخلاف أن مصطفى آخر مراحل تعليمه هي الإعدادية

وأنا خريجة كلية التجارة قسم اللغة الانجليزية لكن ماذا

عن لسانه وشتائمه التي يتأفف منها الحي أجمع؟

ماذا عن ضربه لإخوته البنات هل هو حقا الرجل

المناسب ؟"

احمر وجه كل من جدتها وأمها وقد رفّت عيونهم يميناً

ويساراً لكن ها هي زوجة عمها يخرج صوتها الوقح وقد

لوت شفتيها ساخرة:"اعذريني يا أسية لكن علامَ هذة

النفخة؟ لستِ بالجميلة حتى بل تفتقرين لمعالم الجمال

بجسدك الخالي من الأنوثة وملامحك الشاحبة هذا بخلاف

إنكِ في الثامنة والعشرين "

" كفى يا أم حسين "

لم يكن النهر سوى من جدتها لكن لم تجد من أمها سوى

تخاذل معهود وهي تطرق برأسها أرضاً

ربما سكين تخاذل أمها كان أشد ألماً من رصاص زوجة

عمها وبالرغم من ذلك استقامت واقفه ترد بإباء :

" بكِ الخير يا زوجة عمي لكن أبلغوه رفضي فأنا

لا أنتظر رجلا "

****

بعد مرور عامين

تقف أمام المرآة تخلع حجابها دامعة العينين وهي تسمع

لشجار أمها وأبيها بالخارج عن العريس الجديد

تتأمل ملامحها ببهوت بدءا من شعرها القصير لتفاصيلها

البسيطة ببشره قمحاوية تقترب للسمرة وجسد عادي

جدا يفتقد لمعالم الأنوثة المتفجرة

شيء لم تكن تنتبه له أو تهتم به ببداية شبابها لكن مع

قذائف التعليقات الجارحة أصبح النقص الأنثوى يؤلم

قلبها ويقضي على روحها

ما بين تعليقات أصدقاء

" أسية يا فتاة هل أنتِ متأكدة من كون أنوثتك

مضبوطة؟"

" لِمَ لا تضعين أدوات التجميل تعدل من وضعكِ قليلاً؟"

"ارتدي حمالات صدر كبيرة تعدل من حالتكِ المزرية"

وبين تعليقات أهل:"لستِ بالجميلة فلِمَ ترفضين

العرسان؟"

" تفتقرين للأنوثة فارضِ بنصيبكِ"

"علامَ تتشرطين يا فتاة؟! "

" لقد كبرتِ بالعمر وفاتكِ القطار "

جلست على الفراش تضم ساقيها لصدرها دافنة رأسها بينهم وهي تنفجر في بكاء شديد وكأن قلبها لم يعد يتحمل كل هذا الألم

ما ذنبها يعني؟ ما ذنبها إن كانت ليست بالجمال المطلوب؟

ما ذنبها إن كانت وصلت للثلاثين ولم يعد يأتيها عرسان كما من قبل وإن حنت الأيام وأرسلت إليها أحد وأدت أملها في مهده بعدم كونه مناسب

هل هي مَن شكّلت نفسها وصوّرتها في هذه الهيئة؟

هل هي مَن تأتي بالنصيب لها؟!

ماذا تفعل؟!

"لقد سئمت منك ومن ابنتك ها هي عندك بغرفتها

ادخل لها فلن أتناقش معها مرة أخرى رأسها كالحجر"

رفعت رأسها على صرخة أمها فمسحت دموعها سريعاً

متأهبة لدخول والدها لها

وبالفعل دقائق وكان يطرق الباب ثم يدخل عليها

تألّم قلب الأب بداخله لمرأى دموعها فاستغفر وهو

يتحرّك حتى جلس جوارها على الفراش قائلاً بنبرة لمست

الحزن بها فتوجّعت:

" لِمَ ترفضين يا ابنتي ربما يكون رجلا صالحا "

مسحت أسية عينيها وهي تقول:

" يا أبي إنه مطلق ولديه ولدان يا أبي وحين سألت عنه

زوجته قالت أنه سيء المعشر "

قبل أن يتسنّى له الرد كانت أمها تقتحم الغرفة عليهما

صارخة بنبرة مهمومة:"علامَ تتشرطين بحق الله؟!

ألا تتّعظي من تشرطكِ قبلاً حتى وصلتِ للثلاثين ولم يعد

يأتيكِ أحد؟! ألا تحمدين الله أن أحد افتكرك أخيراً؟!

لقد تزوّجت أخواتكِ مَن هي أكبر وأصغر منكِ"

ضجّ صدر أسية بشهقة بكاء مكتومة لوت قلبها كمداً

بين أضلعها فنطقت بنبرة كساها الحزن :

" حسنا موافقة سأجلس معه "

***

يوم الجمعة غرفة الضيوف

ناظرته من أسفل أهدابها بحذر دون أن تستطيع تكوين صورة عنه

رجل، شاب في الخامسة والثلاثين ملامحه عادية لكنه يمتلك أناقة شديدة

سمعت والدها ينصرف من الغرفة ويقول :

" سأترككما تتعرّفان على بعضكما البعض "

ألمّ الخجل بروحها لكن لم يكد يلحق حتى ذعرت من النبرة القاسية التي لامست أذنيها كضربات السوط :

" اسمعي الأمر لا يحتاج تعارف.. أنا سامح عمري خمس وثلاثون سنة، أعمل مهندس بشركة مقاولات مطلق ولدي طفلان الكبير في السادسة والآخر في الثالثة

أعرف كل شيء عنكِ، ما أريده منكِ ليس أكثر من جسد أحتاجه كرجل في أوج شبابي وخادمة لأطفالي ليس إلا"

اتّسعت عينيها بذهول وقد احمر وجهها وانتشرت به سخونة الغضب تحارب صاحبة الخجل حتى كان صوته الفظ يصدر مرة أخرى:"كما أريدك أن تعرفي أنه في الوقت الذي يتسنّى لي استعادة أم أبنائي سأفعل وليس لكِ حرية القبول أو الرفض أنا أخبركِ فقط "

رغم ترقرق الدموع في عين أسية إلا أن شفتيها افترا عن ابتسامة ساخرة وهي تقول:" ألا تريد أن أغسل لكَ قدميك بالماء والملح فور قدومكَ من العمل أيضاً؟"

احمر وجهه غضباً فهدر قائلاً :"أنتِ قليلة الحياء "

"وأنت لا تفرق كثيراً "

هبّ واقفاً وهو يقول وقد انتفخت أوادجه :

" يبدو أني أخطأت حين اخترت مَن هي مثلكِ وقد

ظننت أن ظروفكِ ستجعلكِ مطيعة"

شبّكت أسية كفيها ببعضهما وقد رفعت حاجبيها قائلة

بنبرة باردة:" صحبتك السلامة يا بشمهندس ورزقك الله

بخادمة ذات حياء وتهذيب "

****

بعد مرور ساعة

تقف مائلة الوجه بتخاذل تستمع لأمها تشتكي لوالدها

وتندب حظها قائلة:"سأموت ناقصة للعمر منكَ ومن

ابنتكَ والله سأموت منكما.. ألا تريحاني؟! تركتها تطرد

الرجل تقريباً أخبرني لِمَ تهاودها رغم عدم رضاك عما تفعل؟"

ونظرت لها باكية تقول بألم أمومي شديد الصدق:

" نحن لن نعيش لكِ طوال العمر، مَن سيكون لكِ من بعدنا؟! ألا تشعرين بقلبي الذي يتقطّع من أجلكِ وأنا أرى أنكِ تكبرين بالعمر عاماً بعد عام ونكبر معكِ ألا تعرفين كيف ينفطر قلبي في كل مرة أمرض بها أنا أو والدكِ"

انفجرت أسية في البكاء وهي تشعر أن كلام أمها ينزل على روحها فيحوّله رفاتاً سحيقاً فتصرخ تقول من بين شهقات بكاءها المتكسرة:"ماذا أفعل يا أمي ماذا أفعل؟ تنظرين لخوفكِ وقلقكِ وماذا عن شعوري أنا؟

ماذا عن تخاذلكِ في حقي يا أمي؟ ماذا عن تركِكِ لهم

يجرحون فيّ دون أن تردّي عني وكأنكِ توافقين على

انتقاصهم مني"

ناء قلبها بالمزيد فواصلت بالنبرة الجريحة:

" علامَ تلوميني؟ على نصيب ليس لي يد به؟!

أم على رفضي أن أعيش حياة تعيسة؟!

يكفي التعاسة التي أنا بها يا أمي والتي أنتم السبب بها

فلا ينقصني عبء أحد آخر "

" اهدأي يا ابنتي "

قالتها أمها بخوف وهي ترى شدة تعصب ابنتها لكن

أسية قد دخلت في حالة مريعة من البكاء حتى سقطت

مغشياً عليها.

***

بعد مرور يومين

دخلت على ابنتها الغرفة تنظر لها بخوف وهي تراها على نفس حالتها منذ أن سقطت مغشياً عليها تنام في الفراش شاردة ولا تكلم أحدا..

اقتربت وجلست جوارها ثم قبلت وجنتها ثم أخذتها لأحضانها وهي تقول باكية:"أسفة يا ابنتي أسفة، والله لم أكن أقصد، كنت أريد أن أفرح بكِ قبل موتي ليس إلا"

تبكي وتقول بمسكنة أمومية صادقة :

"قطع لساني قبل أن أؤلمك "

اعتدلت أسية في فراشها ثم ابتسمت بشحوب قائلة بنبرة مبحوحه :" لا عليكِ يا أمي لم يحدث شيء "

ابتلعت ريقها ثم قالت بنبرة بها رجاء ملون بالجمود :

" فقط أريد منكم ألّا تفتحوا هذا الموضوع مرة أخرى

اعتبري أني تزوجت وطلقت "

أومأت أمها رغم انكسار ملامحها فبللت أسية شفتيها

قائلة بنبرة من اتخذ قرار لا عودة فيه:

"لقد تحدثت مع أخي وزوجته بالخارج واستأذنت منهم

أن أصعد لأعيش بشقتهم في الأعلى "

انقبض قلب أمها قائلة:" لِمَ يا ابنتي "

" اتركيني على راحتي يا أمي من فضلك،

سأنزل يوميا لأساعدك ثم أصعد مرة أخرى "

***

بعد مرور عامين آخرين

نزلت أسية السلم وهي تراجع لوح القرآن الذي ستذهب لتقوم بتسميعه في الجمعية الشرعية الخاصة بالقرية..

قرار اتخذته منذ عامين بعد قرارها أن تعيش في شقة أخيها وهو ما أراحها كثيراً..

لقد ابتعدت عنهم وعن أقاويلهم حتى شقة جدها وجدتها لم تعد تنزل للسلام عليهما سوى ليلاً دون أن تجالسهما وتترك لهما الفرصة ولبقية أقاربها أن يسمموها بحديثهم.

خرجت من بوابة البيت ولم تكد تخطو خطوتين حتى كانت تصدم بعمتها:"مرحبا بذات الرأس الذي يستحق الكسر"

تنهدت أسية بكبت ورغبة في سحل عمتها وسائر أقاربها من شعرهم لكنها عضّت باطن خدها تبتسم بسماجة وهي تلقي السلام دون أن تمد يدها قائلة بتعجل :

" مرحباً يا عمتي سعيدة برؤيتك لكن مرة قادمة نجلس معاً إن شاء الله "

لم تعطِ عمتها فرصة للرد وهي تفر هاربة لكن إن سلمت من لسان عمتها لم تكن ستسلم من حديث أهل القرية فها هي تمر بعواجيز الحي تسمع همساتهم وتمتماتهم الوقحة..

" يا أختي تسير وكأن على قدميها نقش الحناء وكأنها ليست بعانس في الثانية والثلاثين "

"فتاة متبجحة لا يقوى عليها أحد "

" وجه النحس على بيت أهلها "

" يقولون معمول لها عمل على حيض امرأة عقيم "

الجملة الأخيرة التي سمعتها من امرأة تجاور باب الجمعية الشرعية جعلتها تنفجر بالضحك وهي تدخل ملقية السلام على الجالسات حتى كانت آمال المحفظة تبتسم لها وتقول :" أضحكينا معك "

ابتسمت أسية وهي تأخذ لها مكاناً على السجاد مجاورة للفتيات تقول بسخرية :

" لا شيء فقط بائعة الجرجير تقول أني عانس لأنهم قاموا بعقد سِحر لي على دم امرأة عقيم "

انفجرت الفتيات المراهقات يضحكن لكن آمال لم تفعل وهي تستغفر قائلة :

" حسبي الله على شيطانهم هداهم الله وأشغلهم بذاتهم "

مطت أسية شفتيها تقول:"صدقاً يا آمال أصبحت أتقبل

كل هذا ببرود تام وكأن المناعة أصابتني "

أطرقت أمال برأسها لدقائق ثم قالت :

" أرجو ألا يكون هذا البرود هذا مع ربك أيضاً"

قطبت أسية تقول :" كيف "

ابتلعت أمال ريقها ثم قالت :

" يعني أن تكوني كففتِ عن الدعاء أن يرزقكِ الله الزوج

الصالح ليس من أجلهم بل من أجل قلبكِ..

أن تطمعي في خزائنه التي ليس لها آخر "

لمعت عينا آمال ثم قالت بتصميم :

" اسمعي يا أسية أريد منكِ قراءة سورة البقرة كل ثلاث

ليالٍ إن لم تقدري على كل ليلة، لا تفوتي ليلة دون أن

تصلي ركعتين قيام وركعتين قضاء حاجة ثم تدعي..

لا تنفكي أبداً عن دعوة (ربي إني لِما أنزلت إليّ من خيرٍ

فقير)

(ربي هب لي من لدنك ذرية صالحة)

وأكثري من الاستغفار لا تجعلي لسانك يصمت عنه

فيمد عليكِ ربكِ من السماء مدراراً ويمددك بأموال

وبنين ".

****

بعد مرور شهر

تحركت أسية في شقة أخيها ترفع أكمامها حتى أعلى

مرفقيها وهي تتوجه للحمام لتتوضأ

منذ أن فعلت ما أخبرتها به أمال وقد أصبحت أكثر

راحة وتقبلاً لحياتها ونصيبها

وكأن إعطاء الأمل كان بشارة للفرج

انتهت من الوضوء ثم اتخذت الجانب الذي خصصته

للصلاة وبدأت في القيام

وكما حالتها الغريبة منذ يومين فقط

تسجد فتشعر وكأن جبالاً ثقالاً تنزل من على كتفيها

وكأنها تسبح في جنة من الفضاء ليس عليها مخلوق

سواها والوجه النوراني لرب العالمين

وجه لا تراه بعينيها لكنها تستشعره بقلبها

تسلم من الصلاة ثم تشرع بركعتي القضاء وفور أن

انتهت رفعت كفيها تستشعر حلاوة القرب تدعو بكل

ما يلهمه الله للسانها دون أن تغفل عن وصية أمال.

****

بعد مرور عامين

نفس الركن لكن ليس نفس القلب

قلبها الآن مثقل بكل معاني الوصل بالله

قرب ليس كمثله قرب على السماء والأرض

لم تعد تريد أحدا، لم تعد حتى تفكر بالزواج رغم مواظبتها

على الدعاء دون أن تكل أو تمل

حتى أنها منذ شهر حلمت بحلقة ذهبية تزين إصبعها ولم

تهتم بالحلم كثيراً ..

لقد أنهت القرأن الكريم حفظاً وبدأت بالتجويد

أصبحت لا تترك النوافل ولا تكف عن قيام الليل

والركعتين أصبحا ثمانية

تشعر في كل مرة تجلس بها بهذا الوقت من الليل أن ثمة

شيء حلو بل شديد الحلاوة يصل بين قلبها والسماء

لا تكذب إن قالت أنها ترى قلبها يحلق بجناحين في

غمائم الخشوع لربها.

لقد اتخذت من دونهم حجابا لكن من اليقين بربها باب

فور أن فرغت من صلاتها بدأت في الدعاء بصوت

مستذل خاشع بكل ما يجود به قلبها

هل تعلم الشعور؟

القرب من الله رحمة بغربة روحها وأنس بوحشة قلبها

ستر لسوءات نفسها وعزة لكسرة خاطرها .

***

بعد مرور عامين آخرين

يوم الجمعة العاشرة ليلاً

رفعت سماعة الهاتف بشقة أخيها فأتاها صوت أمها

تقول:" أسية تعالي والدكِ يريدك "

" حسنا يا أمي دقائق فقط "

بعد مرور دقائق كانت تفتح باب شقتهم بالأسفل

بالمفتاح ثم قالت وهي تبصرهم بالردهة :

"خير إن شاء الله "

أشارت لها أمها لتقترب فتقدمت حتى جلست على

كرسي مجاور لأريكتهم قائلة :" نعم يا أبي "

أطرق والدها برأسه لدقائق وكأنه يفكر بأمر هام ثم رفع

رأسه لها قائلاً بمقدمة أصابتها بالتوجس :

" اسمعي يا ابنتي والله لم أكن أريد أن أسمعك كلام مثل هذا لكن لما لا نحاول علّ الله أتى بالفرج أخيراً"

رفعت أسية حاجبيها ثم قالت بعد برهة:

"أي فرج؟"

صمت والدها ناظراً لأمها التي نطقت بلهفة لم تستطع إخفائها كلياً:" لقد تقدم لكِ رجل ذا خلق ودين زار والدك في الجامع لكن القول قولكِ بالنهاية "

خيّم الصمت عليهم لدقائق وهي مطرقه برأسها تفكر بتدقيق مريب وكأنها لا تصدق ما مرّ على رأسها من حديث ثم رفعت رأسها ناوية الرفض لكن ما نطق به لسانها كان معاكساً تماماً حتى أنها صعدت للأعلى بذهول لا تعلم كيف خرج هذا الكلام منها :

"حسنا يا أبي يفعل الله ما يشاء، أنا موافقة على مقابلته"

وبالثانية بعد منتصف الليل كانت تفترش سجادتها بعد

أن أدت الاستخارة

انشراح غريب بصدرها يجعل قلبها لا يتوقف عن

الارتجاف كعصفور صغير أخذوه من عز البرد لعمق

الدفء لكنه لم يصدق بعد

ليس لتلهفها للزواج لكن لأنها قد نست الأمر وأخرجته

من رأسها تماماً فلما أتى الأن

ورفعت كفيها للدعاء ثم توكلت ودعت

***

الجمعة التالية

ارتدت فستاناً باللون الأسود منقوش بزهور عباد

الشمس الصفراء ثم لفّت طرحتها وعرجت على المطبخ

تأخذ صينية المشروب ..

قلبها يدق وكأنها لأول مرة تجالس عريسا..

لكنها على كلٍ تعلم النهاية فلما كل هذا التوتر والقلق؟!

سمّت بالله ثم دخلت ناحية الغرفة

وفور أن هلّ نسيم ريحها الطيّب للغرفة رفع رأسه بملل

لكنه قطب من هزة القلب البهلوانية والساذجة

لقد أتى مسايراً لأوامر من حوله ناوياً تطفيشها كمَن

سبقوها لكن ما سر الابتسامة البلهاء التي يشعر بها

شقّت وجهه الآن؟!

فتاة عادية ليست بالطويلة ولا القصيرة قمحاوية أقرب

إلى السمار لكن بمحياها حلاوة من القبول لم يرها مع

مَن يتفوقون عليها جمالاً ..

وكأن روحاً نورانية هلّت منها فأغشت قلبه الذي أصبح

يدق بلا تفسير !

**

بعد نصف ساعة

وصلها صوتاً عميقاً به شيء من المرح يقول :

" ألن ترفعي وجهك لتريني ربما وجدتني قرداً فتهربين

بسبب مقنع"

كبحت ابتسامة تحارب شفتيها للخروج ثم رفعت عينيها

له وليتها لم تفعل!

عيناها شديدتا الجمال ليس لزهوٍ بهما لكن ناصعتين تماماً

كعيني طفل رضيع ببرائتهما رغم آيات الحزن التي تتلوها نظراتها

ابتسم بل الأكثر ضحك ببلاهة قائلاً بنبرة ساذجة وكأنه لم يزر غيرها عشرات المرات قائلاً:

" اسمك جميل جداً"

ابتسمت أسية رغماً عنها ثم قالت بهدوء وراحة تتغلغل لروحها :" ماذا عن اسمك ؟"

تدلى فمه قائلاً بغباء :" ماذا عنه "

ضحكت أسية بخفوت وقالت :" ماهو اسمك ؟"

اعتدل في جلسته محاولاً السيطرة على تلك البلاهة التي لا تقرب منه حقيقةً ثم قال :" اسمي مُحَمَّد "

تناول كأس الشراب يرتشف منه ثم قال :

" اسمي مُحَمَّد ووظيفتي هي صيدلي

عمري هو ستة وثلاثون "

أومأت أسية ثم قالت بخفوت رقيق :

" لما تريد الزواج مني وأنت لم تكن تعرفني ؟"

رغب في مشاكستها فقال بمرح :

" ألا ترين أنكِ تسألين باندفاع وكأنكِ تريدين طردي

خارجاً في الحال "

رجعت أسية للوراء قليلاً برد فعل عفوي قائلة بصدق

مستهجن :"أنا ؟ لا والله أبداً "

ابتسم مُحَمَّد بسماحة وقد بدأ في استعادة اتزانه ثم قال

بصراحة:" كل ما في الأمر أني أتيت اليوم ناوياً تطفيشك

كما أفعل مع كل عروس "

رفعت أسية حاجبيها بتوجس تناظره كمعتوه فضحك ثم

واصل :" صراحة لم أكن أريد الزواج "

انحسرت معالم الابتسام من وجهها فواصل برقة ونبرة

رجولية مقصودة :" لكني أصبحت أريده جداً"

رفعت كفها تعدل من حجابها وقد زار الحياء وجنتيها ثم

قالت بهمس :"لِمَ ؟"

مط مُحَمَّد شفتيه قائلاً :

" لا أعلم فور أن وقعت عيناي عليكِ شعرت وأن قلبي

يخبرني أنكِ لي ولا تسألي كيف ".

***

بعد مرور ستة أشهر

ليلة عقد القران

تجلس في ركن الصلاة بشقة أخيها شاردة وقد أغلقت

على نفسها الباب بالمزلاج ورعب غير مفهوم يدب

بقلبها

هل حقاً بالأسفل يعدون لعقد قرانها؟

هي أسية التي اقتربت من السادسة والثلاثين لا غيرها؟

هي أسية التي تفتقر للأنوثة والجمال؟

هل حقاً مرت ستة أشهر منذ أن تقدم لها مُحَمَّد؟!

تذكر جيداً رغم راحتها له أنها رفضته لكنه ظلّ يأتي

أسبوع وآخر مصمماً عليها حتى تمّت خطبتهم

صحيح أنهما التزما بضوابط الخطوبة الشرعية واقتصرت

مقابلاتهما على البيت لكنه بخفة روحه وطيبة قلبه أخذ

قلبها وأحيا شبابه الذي أشابه الناس بتنمرهم

رجل مثقف وفصيح اللسان حلو المحيا حتى أنه وسيم

بدرجة مميزة وملحوظة

إلى الآن تذكر حديث بنات عمتها عن وسامته وأنه

أحلى منها

ابتسمت ساخرة من أحاديث أهل الحي التي أصابتهما

بعد خطبتها

كيف لأسية العانس أن تتزوج من شاب مثل هذا ولم

يسبق له الزواج أيضاً!

انتفضت على طرق باب الشقة ولم تدرك أنها كانت

تبكي حتى فتحت باب الشقة ولم يكن سواه وصوته

القلق يقول بلهفة:" لِمَ تبكين ؟"

لم ترد على سؤاله وهي تسأل :

" لما صعدت وكيف سمحوا لك ؟"

امتعض من ردها لكنه قال :

" تعالي صعدت لأخذك حتى تمضي على العقد ويأخذ

الشيخ موافقتك "

**

بعد دقائق

دخلت عليهم فحياها الشيخ ثم قال :

" نِعمَ الرجل رزقك الله يا ابنتي لقد مضى على القائمة

دون أن ينظر بها وبأي رقم مكتوب فيها وهو يقول :

"أنا شارٍ يا شيخ وغايتي لا تقدر بأثمان العالم "

ابتسمت أسية ثم ضحكت ثم بكت ناظرة له فآلمه قلبه

عليها ..

لقد علم كل شيء عنها من أهل الحي أثناء زياراته لها

كخطيب وهم يحاولون إثنائه عن جنوونه في الزواج منها

**

بعد ساعتين

تركوا لهما غرفة الضيافة وحدهما وفور أن فعلوا سحبها

من كفيها يوقفها أمامه متضايقاً من حالة الصمت التي

تلبّستها فمال مقبلاً ظاهر كفيها كلٍ على حِدة حتى

رفعت عينيها الدامعتين له فهمس بنبرة ثقيلة من عمق

العاطفة التي يشعر بها اللحظة :

"قلبي سلبتنيهِ يا أسية فهل عندك من مرد؟"

وانفجرت في بكاء عميق وكأنها لا تصدق فضمها لصدره

بحنان متخففاً من أي مشاعر ذكورية تغلب عليه اللحظة

وتضخم قلبه بألم وهي تبكي قائلة بنبرة تُبكي الحجر :

"لقد أذوني يا مُحمد لقد أذوني كثيراً"

" احكي يا حبيبتي صدري بئراً لأسرارك فلا تخافي "

وكأنها كانت تنتظر ما يقول فانطلقت تحكي كل شيء

وأي شيء حتى انتهت تقول بأنين مجروح :

" أنا أفقد كل معالم الأنوثة يا مُحَّد ؟

أعلم أني لست بالجميلة فلِمَ ربطتّ نفسك بمَن مثلي؟"

وتأوه هامساً بذهول من فيض الألم بنبرتها :

" يا الله عليهم اللعنة جميعاً"

ثم رفع رأسها واقترب مقتنصاً أنفاسها تاركاً لمشاعر

ذكورية تعدّت حافة الكبت وزينت بمشاعر الحب لها

يدلل كل ما يطاله منها بشفتيه حتى كانت كقطعة حلوى

ذائبة بين كفيه ..

وهذا آلم قلبه أكثر !

إنها تتلهف للعاطفة وإن لم تعرفها تماماً ..

مشاعره تغادر محبسها الخانق فتلتهم كل حلاها حتى كان

طرق الباب محبطاً لكل أشواقهم وصوت أخيها يصلهم :

" جدي يريد أن تنزلا ليبارك لكما "

نظر مُحَمَّد لوجهها شديد الاحمرار وكأن العاطفة زادتها فتنة

فهمس بنبرة لاهثة وأنفاس متسارعة هذا خلاف عينيه

الغائمتين بمشاعر ثخينة:

" هل وصلتكِ أجابتي أم لم تصل بعد فأغلق الباب

بالمفتاح علينا ولينتظر جدك ؟"

***

بعد مرور شهر

منتصف الليل ليلة الزفاف

يهدهدها منذ ساعة وهو يضمها له وقد فاجأته ببكائها

وكأنها لم تكن تلك الراضية بذوبان مهلك

أخذ بكاؤها يخفت حتى تحول إلى شهقات فهمس مُحَمَّد

بقلق :" أسية حبيبتي لِمَ تبكين هل كنت غليظاً معك

وغير مراعياً"

سمع شهقة مريبة منها أصابته بالتوجس لكن ذلك لم يكن

شيء جوار إحباطه وزيادة توتره من قولها الناهر :

"اصمت يا مُحَمَّد اصمت "

صمت على مضض مربّتا عليها لكن الرجل القلق به لم

يستطع الصمود أكثر وهو يقول بنبرة نافذة للصبر :

"أسية أخبريني ما سبب بكاؤك؟ "

" يا إلهي ألم تسمع عن خجل الفتيات بليلة كهذة خاصةً

إن كانت مع مَن هو مثلك "

أصاب ملامحه البلاهة وشيء من البلادة ولم يعد يفهم

هل هي تبكي من الخجل أم من رجل مثله!

ماذا به ؟ هل أحبط أنوثتها ؟!

لم يستطع الصبر أكثر فنطق سؤاله صريحاً مما جعلها ترفع

وجهاً مريعاً مشعث الشعر له من كثرة البكاء صارخة

بخفوت :"ألا تفهم تماماً؟! خجلت يا أخي خجلت لأنها

كانت أجمل ليلة بعمري كله بخلاف ما رسمت لها من

تخيلات مخيفة"

بلادة أصابت ملامحه جعلتها تناظره بحذر لكنه نفضها عنه بفظاظة قائلاً بنبرة شديدة الغيظ :

" منكِ لله يا أسية يا ابنة زينب لقد جعلتني أشك بنفسي يا غبية "

قطبت أسية بين حاجبيها قائلة بضيق وعدم رضا:

" مُحَمَّد من فضلك لا تُخطئ"

ناظرها بامتعاض تبدد قليلاً وقد غلبت مشاعره لمنظرها الشهي شديد الحميمية فعاد يضمها له ثم همس بغيظ قبل أن يغيبها في عاطفة شغوفة جرفتهم بأشواقها :

" بل غبية معتوهة المشاعر تماماً"

***

وبعد مرور ثلاثة أشهر أخرى

إذا وصلت بتفكيرك لأحجية أن رأي الناس شيء بالٍ يسقط بسلة المهملات فهم بأي وضع ومكان وكيفية سيتحدثون فأنت امتلكت نصف سلامك النفسي وأما عن النصف الآخر فعلاقتك بربك .

مرت الأيام والشهور يعيش في حياة سعيدة معها توّجها الحب وزينتها المودة والرحمة

كانت هي خير المتاع ويحاول أن يكون الزوج الصالح لها

نزل من سيارة الأجرة على رأس شارع بيت أبيه حيث هم معزومون اليوم على الغداء وقد سبقته هي صباحاً أثناء ما كان في عمله .

دخل من البوابة ثم صعد السلالم سريعاً وقبل أن يدخل

شقة التجمع العائلي سمع صوت أخته تحدثها :

"إلى الأن لم تحملي يا أسية "

ولا يوجد رد منها ثم سمع صوت أمه تقول بنبرة حزينة:

" ربما من العمر فأسية قد كبرت ويقولون النساء لا تحمل بهذا العمر "

" غريبة يا أمي كيف وقد أنجبتِ صفية ورامز وكنتِ تكبرين أسية بأربعة أعوم "

ثلاث شهقات من النساء التفتن على صوته وقد تلجلجت أمه واحمر وجهها غضباً وتحرّجاً في آن واحد فقالت مدافعة:

"أنا أنا لم أقل شيء لقد كنت أخرج خوفي وقلقي "

ثم ارتفع صوت أخته من بديهية خذه بالصوت قبل أن

يغلبك :"ولِمَ أنت منفعل هكذا؟ أمك تحبك وتريد أن ترى لك الولد وأنا أريد أن اطمئن عليك "

شدّ زوجته الصامتة بملامح مكبوتة كمن على وشك الانفجار ثم قال ساخراً:"وهل سترضعيه عنها أم ماذا ؟"

احمرت بغضب فلم يأبه لها وهو يقول بنبرة صارمة :

"أمر الحمل ممنوع الحديث فيه نهائياً بوجودي أو بغيره وإلا لن تأتي أسية هنا مرة أخرى أبداً"

صمت ثم استدار وهو يسحبها معه قائلاً باقتضاب :

" نحن سنذهب ؟"

" والغداء ؟"

قالتها أمه بغضب فقال باتراً:" تناولناه وأزيد "

***

بعد ساعة بشقتهما

أبدلا ملابسهما ومازالت صامتة فجلس جوارها على الفراش يضمها له هامساً بحنان :" ابكِ "

ولم يكمل اللفظ حتى وهي تنفجر في نحيب مؤلم متشبثة بجانبي قميصه تخرج شهقات متوجعة آلمت قلبه فضمها له أكثر حتى كاد يدخلها بين ضلوعه هامساً بنبرته الحنونة:" يا ساذجة هل كل هذا البكاء لمجرد كلمتين من أخت تغار وأم عفوية الحديث ؟"

يعلم أنه يحاول أن يصلح صورة أهله وقد انتوى جلسة صارمة معهم فواصل:

" لِمَ تشعريني وكأنكِ تريدين التخلص مني بطفل ؟"

كفاه يعبثان وقوله يطاوعهما:"أنا أريد أن أتدلل أولاً"

لكنها لم تستجيب وهي ترفع وجهها شديد الحمرة تقول بحزن :" لكني كبرت فعلا يا مُحَّد أخاف ألا أنجب لك "

"وإن كان أنتِ تكفينني "

" كلام "

قالتها على مضض فقرص وجنتها معاقباً ثم قال :

" سأمررها لكِ الآن فقط "

لم يغادر الحزن ملامحها وهي تخرج أفكارها قائلة :

" ألا يكفي أني لست جميلة كم..."

قاطعها مُحَّد مستولياً على شفتيها بقبلة غطتها العاطفة تخللها الشغف وتقطعت لها الأنفاس حتى همس بغضب لاهثاً :"ألم نغلق هذا الموضوع "

يرسم صرامة على ملامحه تخالف عبثية قوله :

" تحدثنا مرة وعشراً في هذا الأمر السخيف والذي تسبب به محض متنمرين مصابين بالتخلف وحين لم تقتنعِ اضطررت أن أقنعك فعلاً وموضوعاً حتى ندمتِ من شدة إرهاقك "

احمرت وجنتيها بشدة وهي تذكر هذا اليوم الذي يتحدث عنه وقد أرهقها بعاطفته المتولهه بها والجديرة الإثبات عن مدى أنوثتها في عينه فوبخته هامسة دون أن تنظر له :" مُحَمَّد احترم نفسك "

والاحترام صفة لا تقترن بالزوج خاصة وإن كان محب لأسية كمحمد فقد أخذها بجولة عشق يسكب فيها على أنوثتها أمطاراً من غزل ويدلل فيها أنوثتها بسيولاً من العشق حتى لم يعد لديها مجالاً للشك فيما يقول.

ليلاً بالأخص في الثالثة

ركنها الأسير بشقتها حيث المصحف والسجادة ورائحة البخور الخفيفة

تركته وأغرقت عليها الغرفة التي أفرغاها لتكون مكاناً للتعبد ثم قامت ليلها وبدأت بقراءة البقرة ثم أخذت بقية الليل تدعي حتى غفت وبالمنام رأت امرأة تضع طفلة شديدة الجمال بين كفيها ثم تقول بنبرة شديدة الرحمة :

" صدقت الصبر يا أسية فصدق الله وعده بالجبر "

***

بعد مرور عام ونصف

عطية الله ثمينة كاللؤلؤ ليس كمثلها شيء!

غرفة بالمشفى قام بحجزها وتزيينها بالبلالين والزينة

الوردية فقد أنارت حياته منذ ساعتين تولين الصغيرة

اقترب حاملاً لها من أسية التي فتحت عينيها ولم تفق من

البنج كلياً فكل فنية وأخرى تغفو

ابتسم مقبلاً الصغيرة مجرد مساً خفيفاً من شفتيه لوجنتها

الناعمة ثم وضعها جوارها هامساً بفرحة:

" حمداً لله على سلامتك حبيبتي "

مالت أسية مقبلة ابنتها والسعادة تغمر روحها وقلبها

يلهج بالحمد ثم سألته بعينين مترغرغتين :

" هل أنت سعيد ؟"

مال مقبلاً لها ثم همس وقد اختلطت الثلاثة أنفاس

الأب والأم والصغيرة :

" كلمة سعيد لا تكفي التعبير عن شعوري

كنتِ عطية الله لي يا أسية "

"أحبك "

"أحبكِ يا أسية قلبي ".

تمت بحمد الله

أخيراً كلمة الكاتبة

لكل أب وكل أم لا تكونا حملاً ثقيلاً على بناتكم أشد

من اختبارهم

الزواج فطرة واحتياج وليس بيدها أنها لم تتزوج أو ترتبط

وقد تعدّت السن المعروف لعرفاً عقيماً

أنتما تكسران قلوب بناتكما بإظهاركما لهن أنهن حملاً

ثقيلاً عليكم

أن القطار فاتها وأن العمر ذهب أوانه وشبح العنوسة قد

خيّم كلها أفكار عقيمة وإن عذرنا الخوف الفطري

تزوجت ابنتك أم ليس بعد هو نصيب ومكتوب ومقدر

لها بالساعة والثانية وستأخذه كاملاً مكملاً وهو شيء

ليس لها يد فيه ..

وأنتِ

حياتك لا تقف على رجل وأعلم أنه احتياج طبيعي لكن

لا تنتظري ادعي واتركيها لله

ما عليكِ هو أخذك بالأسباب والأسباب المتاحه لكِ هي

الدعاء والقرب من الله غير ذلك سلميها له فالانتظار

قاتل

انعمي بحياتك وبعذوبيتك حتى يأتي الله بأمره ويقول كن

فيكون

أسأل الله أن يجبر قلوبكن جميعا برجال تصونها فإن

عوض الله إذا حل أنساك ما أحل .